﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ ﴿٢١٣﴾ ﴾

خاطب الحق - تبارك وتعالى - نبيه محمداً ﷺ بقوله : ﴿ فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ .. ﴿٢١٣﴾ ﴾ [الشعراء] فهل كان ﷺ مظنة أن يدعو مع الله إلهاً آخر ؟ قالوا : لا ، إنما المراد ابتداء توجيه ، وابتداء تكليف ، كأنه يقول له : اجعل عندك مبدءًا ، أنك لا تتخذ مع الله إلهاً آخر ، لا أن الرسول اتخذ إلهاً ، فجاء الوحى لينهاه ، إنما هو بداية تشريع وتكليف ، وإذا كان العظيم المرسَل ﷺ يتوعده الله إنْ أراد أن يتخذ إلهاً آخر ، فما بالك بمَنْ هو دونه ؟

فساعةَ يسمع الناس هذا الخطاب مُوجّهاً إلى النبى المرسَل إليهم ، فلا بُدَّ أنْ يصغوا إليه ، ويحذروا ما فيه من تحذير ، كما لو وجَّه رئيس الدولة أمراً إلى رئيس الوزراء مثلاً - ولله المثل الأعلى - وحذَّره من عاقبة مخالفته ، فلا شكَّ أن مَنْ دونه من الموظفين سيكون أطوع منه لهذا الأمر .

﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴿٢١٤﴾ ﴾

وهكذا نقل الأمر من رسول الله إلى أهله وعشيرته الأقربين ، ذلك ليطمئن الآخرون من قومه ، فهو يأمرهم بأمر ليس بنجْوة عنه ، فأول ما ألزم به ألزم نفسه ثم عشيرته ، وهذا أدْعى للطاعة وللقبول ، فأنت تردُّ أمرى إذا كنتُ آمرك به ولا أفعله ، لكنى آمرك وأسبقك إلى الفعل .

لذلك سيدنا عمر - رضى الله عنه - وكان على المنبر يخطب فى الناس ، ويقول : أيها الناس ، اسمعوا وأطيعوا ، فقام أعرابى وقال : لا سمعَ لك ولا طاعة ، انظر إلى هذه الجرأة على مَنْ ؟ على عمر وهو على المنبر - فقال له عمر : ولِمَ ؟

قال : لأن ثيابك أطول من ثيابنا - وكان القماش يُوزَّع بين المسلمين بالتساوى لا فَرْقَ بين طويل وقصير - فقال عمر لابنه عبد الله : قُم يا عبد الله لتُرى الناس ، فقام عبد الله فقال : إن أبى رجل طوّال - مبالغة فى الطول - وثوبه فى المسلمين لم يكْفه ، فأعطيته ثوبى فوصلَه بثوبه ، وها أنذا بمُرقَّعتى بينكم ، عندها قال الأعرابى : إذنْ نسمع ونطيع(١) .

لكن أين القدوة فى دوائرنا ومصالحنا الحكومية الآن ؟ وأين هو رئيس المصلحة الذى يحضر ، ويجلس على مكتبه فى الثامنة صباحاً ليكون قدوة لمرؤوسيه ؟ وإن من أشد ما ابتُلينا به أن نفقد القدوة فى الرؤساء والمسئولين . لذلك أول ما وُجِّه التشريع والتكليف وُجِّه إلى رسول الله ، وإلى أقرب الناس إليه وهم عشيرته الأقربون ؛ لأن الفساد يأتى أول ما يأتى من دوائر القُرْبى والحاشية التى تحيط بالإنسان ، وقد يكون الرئيس أو الحاكم بخير ، لكن حاشيته هى سبب الفساد ، حيث تستغل اسمه فى فسادها أو تُضلِّله وتُعمِّى عليه الحقائق .. إلخ .

لذلك كان سيدنا عمر - رضى الله عنه - ساعة يريد أن يُقرِّر شيئاً للأمة ، ويعلم أنه قاسٍ عليهم يجمع أهله أولاً ويقول لهم : لقد شاء الله أن أقرر كذا وكذا ، فمَنْ خالفنى منكم فى شىء من هذا جعلته نكالاً لعامة المسلمين ، وهكذا يضمن أهْله وأقاربه أولاً ، ويبدأ بهم تنفيذ ما أراده للمسلمين .

---

(١) عن الحسن ، قال : خطب عمر الناس وهو خليفة وعليه إزار فيه ثنتا عشرة رقعة . وعن أنس قال : كان بين كتفى عمر ثلاث رقاع . [أورده ابن الجوزى فى صفة الصفوة ١٤٧/١] .

وتأمل ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء] والإنذار كما ذكرنا التحذير من الشرِّ قبل أوانه ، فلم يقُلْ : بشِّر عشيرتك ، كأنه يقول له : إياك أنْ يأخذك به لين ورأفة ، أو عطف لقرابتهم لك ، بل بهم فابدأ .

وقد امتثل رسول الله ﷺ لهذا التوجيه ، فكان ﷺ يقول لقرابته : « يا عباس يا عم رسول الله ، يا صفية عمة رسول الله ، يا فاطمة بنت محمد ، اعملوا فإني لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، ولا يأتيني الناس بأعمالهم ، وتأتوني بأنسابكم »(1) .

وفي الوقت الذي يدعوه إلى إنذار عشيرته الأقربين يقول في مقابلها :

﴿ وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٢١٥ ﴾

بعد أن أمره بالشدة على أهله وقرابته يأمره باللين ، وخَفْض الجناح لباقي المؤمنين به ، وخَفْض الجناح كناية عن اللُّطْف واللين في المعاملة ، وقد أُخذ هذا المعنى من الطائر حين يحنو على فراخه ، ويضمهم بجناحه .

وخَفْض الجناح دليل الحنان ، لا الذلّة والانكسار ، وفي المقابل نقول (فلان فارد أجنحته) إذا تكبَّر وتجبَّر ، وتقول (فلان مجنح لي) إذا عصا أوامرك .

وفي موضع آخر : ﴿ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِلْمُؤْمِنِينَ (٨٨) ﴾ [الحجر]

---

(1) عن أبي هريرة قال : قام رسول الله ﷺ حين أنزل الله عز وجل ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ (٢١٤) ﴾ [الشعراء] قال : يا معشر قريش - أو كلمة نحوها - اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً . يا بني عبد مناف لا أغنى عنكم من الله شيئاً ، يا عباس بن عبد المطلب لا أغنى عنك من الله شيئاً ، يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئاً ، ويا فاطمة بنت محمد سليني ما شئت من مالي لا أغنى عنك من الله شيئاً » أخرجه البخاري في صحيحه (٢٧٥٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٠٦) .

وقال فى حَقِّ الوالدين : ﴿ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ .. (٢٤) ﴾ [الإسراء] فلا نقول : كُنْ ذليلاً لهم ، إنما كُنْ رحيماً بهم ، حَنُوناً عليهم ، ففى هذا عِزّك ونجاتك .

﴿ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) ﴾

فإنْ عصاك الأقارب فلا تتردد فى أنْ تعلنها ﴿ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) ﴾ [الشعراء] وعندها لا تراعى فيهم حَقَّ الرحم ، ولا حَقَّ القُرْبى ، لأنه لا حَقَّ لهم ؛ لذلك قال ﴿ فَقُلْ .. (٢١٦) ﴾ [الشعراء] ولم يقل تبرأ منهم ؛ لأنه قد يتبرأ منهم فيما بينه وبينهم .

لكن الحق - تبارك وتعالى - يريد أنْ يعلنها رسول الله على الملأ ليعلمها الجميع ، وربنا يُعلِّمنا هنا درساً حتى لا نحابى أحداً ، أو نجامله لقرابته ، أو لمكانته حتى تستقيم أمور الحياة .

والذى يُفسد حياتنا وينشر فيها الفوضى واللامبالاة أنْ ننافق ونجامل الرؤساء والمسئولين ، ونُغطِّى على تجاوزاتهم ، ونأخذهم بالهوادة والرحمة ، وهذا كله يهدم معنويات المجتمع ، ويدعو للفوضى والتهاون .

لذلك يعلمنا الإسلام أنْ نعلنها صراحة ﴿ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ (٢١٦) ﴾ [الشعراء] وليأخذ القانون مجراه ، وليتساوى أمامه الجميع ، ولو عرف المخالف أنه سيكون عبرة لغيره لارتدع .

لذلك يُقال عن عمر رضى الله عنه أنه حكم الدنيا كلها ، والحقيقة أنه حكم نفسه أولاً ، فحكمتْ له الدنيا ، وكذلك مَنْ أراد أنْ يحكم الدنيا فى كل زمان ومكان عليه أنْ يحكم نفسه ، فلا يجرؤ أحد من أتباعه أن يخالفه ، وساعة أن يراه الناس قدوة ينصاعون له بالسمع والطاعة .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾

فقد تقول : إنْ فعلتَ هذا قلَّ أنصارى وتفرَّق الأتباع والحاشية من حولى ، نقول لك : إياك أنْ تظنَّ أنهم يجلبون لك نفعاً ، أو يدفعون عنك ضراً ، فالأمر كله بيده تعالى وبأمره ، فخيرٌ لك أنْ تراعى الله ، وأن تتوكل عليه .

﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ﴾ [الشعراء] العزيز الذى يَغْلِب ولا يُغلب ، ويَقْهر ولا يُقهر ، ومع ذلك فهو سبحانه رحيم بك وبهم . وصفة الرحمة هنا تنفى ما يظنه البعض أن العزة هنا تقتضى الجبروت أو القهر أو الظلم ، فهو سبحانه فى عزَّته رحيم ، لأن عزة العزيز على المتكبِّر رحمة بالمتكبَّر عليه .

وكأن الحق - سبحانه وتعالى - يُعلِّم خليفته فى أرضه خاصة أُولى الأمر منهم ، يُعلِّمه أن يكون أريباً ناصحاً ، يقول له : إياك أنْ تتوكَّل على عبد مثلك إذا عجزتَ عن العمل ؛ لأنه عاجز مثلك ، وما دام الأمر كذلك فتوكَّل على العزيز الرحيم ، فعزَّته ورحمته لك أنت .

﴿ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ(1) ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾

أى : توكل على الذى يحبك ، ويُقدِّر عملك وعبادتك حين تقوم ، والمعنى تقوم له سبحانه بالليل والناس نيام ﴿ وَتَقَلُّبَكَ فِى السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ ﴾ [الشعراء] ونفهم من ذلك أنه يصح أن تقوم وحدك بالليل .

---

(1) قال ابن كثير فى تفسيره (٣/٣٥٢) : « أى : هو معتن بك » ، وأورد أقوالاً منها :
« - أى : حين تقوم إلى الصلاة . قاله ابن عباس .
- يرى قيامه وركوعه وسجوده . قاله عكرمة .
- يراك إذا صليت وحدك . قاله الحسن البصرى .
- يراك حين تقوم من فراشك أو مجلسك . قاله الضحاك .
- يراك قائماً وجالساً وعلى حالاتك . قاله قتادة » .

وقوله ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ (٢١٨)﴾ [الشعراء] يرى حالك فى هذا القيام ، وما أنت عليه من الفرح ، وسرعة الاستجابة لنداء الله فى قوله : الله أكبر ، يراك حين تقوم على حالة انشراح القلب والإقبال على الله والنشاط للعبادة ، لا على حال الكسل والتراخى .

وإنْ أقبلتَ على الله أعطاك من الفُيوضات ما يُعوِّضك مكاسب الدنيا وتجارتها ، إنْ تركتها لإجابة النداء ؛ لذلك كان شعار الأذان الذى ارتضاه رسول الله ﷺ (الله أكبر) أى : أكبر من أىِّ شىء غيره ، فإنْ كنتَ فى نوم ، فالله أكبر من النوم ، وإنْ كنتَ فى تجارة ، فالله أكبر من التجارة ، وإنْ كنتَ فى عمل فالله أكبر من العمل.. إلخ .

وعجيب أن نرى مَنْ يُقدِّم العمل على الصلاة بحجة امتداد الوقت ، وإمكانية الصلاة بعد انتهاء العمل ، وهذه حجة واهية ؛ لأن ربك حين يناديك (الله أكبر) يريدك أنْ تستجيب على الفور لا على التراخى ، وإلا كيف تسمى الاستجابة للنداء إذا تأخرت عن وقتها ؟ فطول الوقت خاصة بين الصبح والظهر وبين العشاء والصبح لا يعنى أنْ تصلى فى طول هذا الوقت ؛ لأن النداء يقتضى الإسراع والاستجابة .

ولنا ملحظ فى (الله أكبر) فأكبر أفعل تفضيل تدلُّ على المبالغة ودون أكبر نقول : كبير ، وكأنها إشارة إلى أن العمل والسعى ليس شيئاً هيناً أو تافهاً ، إنما هو كبير ، ينبغى الاهتمام به ؛ لأنه عَصَب الحياة ، ولا تستقيم الأمور فى عمارة الأرض إلا به .

لكن ، إنْ كان العمل كبيراً فالله أكبر ، فربُّك - عز وجل - لا يُزهِّدك فى العمل ، ولا يُزهِّدك فى الدنيا ؛ لأنه خالقها على هذه الصورة وجاعل للعمل فيها دوراً ، وإنْ شئتَ فاقرأ : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ

الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ .. (١٠) ﴾ [الجمعة]

وقال في موضع آخر : ﴿وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا .. (٧٧) ﴾ [القصص] لأن حركة الحياة هي التي تُعينك على أداء الصلاة وعلى عبادة الله ، فبها تقتات ، وبها تتقوّى ، وبها تستر عورتك ، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب . ومع هذا فدعوة الله لك أوْلَى بالتقديم ، وأوْلَى بالإجابة ؛ لأن الذي خلقك وخلقها ناداك (الله أكبر) .

و ﴿تَقَلُّبَكَ .. (٢١٩) ﴾ [الشعراء] تعني[1] : القعود والقيام والركوع والسجود ، فربُّك يراك في كل هذه الأحوال ، ويرى سرورك بمقامك بين يديه ، فإذا ما توكلتَ عليه فأنت تستحق أن يكون ربُّك عزيزاً رحيماً من أجلك .

أو : أن المعنى ﴿وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ (٢١٩) ﴾ [الشعراء] أنه ﷺ كان يرى صحابته وهم يُصلُّون خلفه ، فيرى مَنْ خلفه ، كما يرى مَنْ أمامه ، وكانت هذه من خصائصه ﷺ[2] .

لذلك كان يُحذِّرهم أنْ يسبقوه في الصلاة في ركوع أو سجود ، أو قيام أو قعود . ويحذرهم أنْ يفعلوا في الصلاة خلفه ما لا يصح من المصلي اعتماداً على أنه ﷺ لا يراهم .

---

(١) قال مجاهد وقتادة : وتقلبك في المصلين . وقال ابن عباس : أي في أصلاب الآباء آدم ونوح وإبراهيم حتى أخرجه نبياً . ذكرهما القرطبي في تفسيره (٧/٥٠٢٤) .

(٢) عن أبي هريرة قال : صلى بنا رسول الله ﷺ يوماً ، ثم انصرف فقال : « يا فلان ألا تحسن صلاتك ؟ ألا ينظر المصلي إذا صلى كيف يصلي ؟ فإنما يصلي لنفسه ، إني والله لأبصر من ورائي كما أبصر مَنْ بين يديَّ » . أخرجه مسلم في صحيحه (٤٢٣) ، والنسائي في سننه (٢/١١٩) .

﴿ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾ ﴾

السميع لما يقال ، العليم بما يجول فى الخواطر .

﴿ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَن تَنَزَّلُ ٱلشَّيَٰطِينُ ﴿٢٢١﴾
تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾

وقد سبق أن قالوا عن القرآن تنزلت به الشياطين ، فيردُّ عليهم : تعالوا أخبركم على مَنْ تتنزل الشياطين ، وأصحح لكم هذه المعلومات الخاطئة : صحيح أن الشياطين تتنزل ، لكن لا تتنزل على محمد ؛ لأنه عدوها ، إنما تتنزل على أوليائها .

قال الحق سبحانه : ﴿ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ .. ﴿١٢١﴾ ﴾ [الأنعام]

﴿ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [الشعراء] فهذا الذى يناسب الشياطين ويرضيهم ، والجن قسمان : فمنه الصالح وغير الصالح(١) وهذا الذى يسمونه الشياطين .

وكلمة ﴿ أَفَّاكٍ .. ﴿٢٢٢﴾ ﴾ [الشعراء] مبالغة فى الإفك أى : قلب الحقائق . وكان هؤلاء يخطفون الأخبار فيقولون شيئاً قد يصادف الصدق ، ثم يجعلون معه كثيراً من الكذب .

﴿ يُلْقُونَ ٱلسَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَٰذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ ﴾

السمع مصدر وآلته الأذن ، فالمراد يلقون الأذن للسمع ، كما فى

---

(١) قال تعالى عن الجن أنهم قالوا : ﴿ وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَٰلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا ﴿١١﴾ ﴾ [الجن] .

قوله تعالى : ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (٣٧)﴾ [ق]

يعنى : ألقى سمعه كى يستمع كمنْ يحرص على السماع من خفيض الصوت ، فيميل نحوه ليسمع منه . وقال ﴿وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ (٢٢٣)﴾ [الشعراء] لأن بعضهم والقلة منهم قد يصدق ليُغلِّف كذبه ، ويُغطى عليه ، فأنت تأخذ من صدْقه هذه المرة دليلاً على أنه صادق ، وهو يخلط الخبر الصادق بأخبار كثيرة كاذبة .

ثم يقول الحق سبحانه :

﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤)﴾

الشعراء : جمع شاعر ، وهو مَنْ يقول الشعر ، وهو الكلام الموزون المُقفَّى ، وقد اتهم الكفار رسول الله ﷺ بأنه شاعر ، وردَّ عليهم القرآن الكريم فى عدة مواضع ، منها قوله تعالى : ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ (٤١)﴾ [الحاقة]

وعجيب من كفار مكة ، وهم العرب أهل اللسان والبلاغة والبيان ، وأهل الخبرة فى الكلام الموزون المُقفَّى ، بحيث كانوا يجعلون للشعر أسواقاً فى ذى المجاز وذى المجنَّة وعكاظ ، ويُعلِّقون أجود أشعارهم على أستار الكعبة ، ومع ذلك لا يستطيعون التمييز بين الشعر وأسلوب القرآن الكريم .

إذن : هم يعرفون الفَرْق ، لكن يقصدون بقولهم كما حكاه القرآن : ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠)﴾ [الطور] يقصدون بالشعر الكلام العَذْب الذى يستميل النفس ، ويُؤثِّر فى الوجدان ، ولو كان نثراً . وهذه ينادى بها الآن أصحاب الشعر الحر ؛ لأنهم

يقولون شعراً ، لكنه غير موزون ، وغير مُقفَّىً .

ومعنى ﴿الْغَاوُونَ (٢٢٤)﴾ [الشعراء] جمع غاوٍ . وهو الضال ، وهؤلاء يتبعون الشعراء . لأنهم يؤيدون مذهبهم في الحياة بما يقولون من أشعار ؛ ولأنهم لا يحكم منطقهم مبدأ ولا خُلُق ، بل هواهم هو الذى يحكم المبدأ والخلق ، فإنْ أحبُّوا مدحوا ، وإنْ كرهوا ذمُّوا .

والدليل على ذلك :

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ (٢٢٦)﴾

الضمير فى ﴿أَنَّهُمْ .. (٢٢٥)﴾ [الشعراء] يعود على الشعراء ، والوادى : هو المنخفض بين جبلين ، وكان محل السير ومحل نمو الأشجار والبساتين واستقرار المياه .

﴿يَهِيمُونَ (٢٢٥)﴾ [الشعراء] نقول : فلان هَامَ على وجهه أى : سار على غير هدى ، وبدون هدف أو مقصد ، فالمعنى ﴿فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥)﴾ [الشعراء] أن هذه حال الشعراء ، لأنهم أهل كلام وخيال يمدحك أحدهم إنْ طمع فى خيرك ، فإنْ لم تُعطه كال لك الذم وتفنَّن فى النَّيل منك ، فليس له وادٍ معين يسير فيه ، أو مبدأ يلتزم به ، كالهائم على وجهه فى كل وادٍ .

فالمتنبى[1] وهو من أعظم شعراء العصر العباسى ويُضرب به المثل فى الحكمة والبلاغة ، من أشهر شعره قوله :

---

(١) هو : أحمد بن الحسين الكندى ، أبو الطيب المتنبى ، ولد بالكوفة فى محلة تسمى « كندة » عام ٣٠٣ هـ ، ونشأ بالشام ، ثم تنقل فى البادية يطلب الأدب وعلم العربية وأيام الناس ، ادعى النبوة فى بادية السماوة (بين الكوفة والشام) ، ثم تاب ورجع عن دعواه ، مدح سيف الدولة بن حمدان وكافوراً ثم هجاه لأنه لم يُولِّه . [انظر الأعلام للزركلى ١/ ١١٥] .

فَالخَيْلُ والليْلُ والبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِى   والسَّيْفُ والرُّمح والقرْطَاسُ والقَلَم

فلما كان فى إحدى رحلاته خرج عليه قُطَّاع الطرق ، فلما أراد أن يفرَّ قال له خادمه : ألست القائل :

فَالخَيْلُ والليْلُ والبَيْدَاءُ تَعْرِفُنِى   والسَّيْفُ والرُّمح والقرْطَاسُ والقَلَم

فاستحى أنْ يفرَّ ، وثَبت أمامهم حتى قتلوه[1] ، فقال قبل أنْ يموت : ما قتلنى إلا هذا العبد ، واشتهر هذا البيت فى الأدب العربى بأنه البيت الذى قتل صاحبه .

ولما جاء المتنبى إلى مصر مدح حاكمها كافور الإخشيدى[2] طمعاً فيه ، وكان كافور رجلاً أسود ؛ لذلك كَنَّوْه بأبى المِسْك ، ولما مدحه المتنبى حالَ الرضا قال فيه :

* أبَا كُلِّ طِيبٍ لاَ أبَا المِسْكِ وَحْدَهُ *

وفى قصيدة أخرى يقول :

قَضَى اللهُ يَا كافُورُ أنَّكَ أوَّلٌ   وليْسَ بقَاضٍ أنْ يُرَى لَكَ ثَانِ

فلما لم يُعْطه كافور طلبه ، وساءتْ العلاقة بَيْنهما ، قال يهجوه :

أُريك الرضا لو أخْفَت النفسُ خافيَا   ومَا أنَا عَنْ نفسى ولاَ عنْكَ رَاضيا
أَمَيْناً[3] وإخْلاَفاً وغَدْراً وخِسَّةً وجُبْناً   أشخصاً لُحْتَ لى أمْ مَخَازِيا
وتُعجِبُنى رِجْلاَكَ فى النَّعْلِ إننى   رَأيتُكَ ذَا نَعْلٍ وإنْ كُنْتَ حَافِيا

---

(١) قُتل المتنبى هو وابنه وغلامه بالنعمانية عام ٣٥٤ هـ حيث عرض له فاتك بن أبى جهل الأسدى فى الطريق بجماعة من أصحابه ، ومع المتنبى جماعة أيضاً ، فاقتتل الفريقان ، فقُتل المتنبى بالقرب من دير العاقول (فى الجانب الغربى من سواد بغداد) وفاتك هذا هو خال ضبة بن يزيد الأسدى العينى ، الذى هجاه المتنبى بقصيدته البائية المعروفة [الأعلام للزركلى ١/١١٥] .

(٢) كافور بن عبد الله الإخشيدى ، أبو المسك ، أمير مشهور ، كان عبداً حبشياً اشتراه الإخشيدى ملك مصر (سنة ٣١٢ هـ) فنُسب إليه ، وأعتقه فترقى عنده . وما زالت همته تصعد به حتى ملك مصر (سنة ٣٥٥ هـ) وقد ولد (عام ٢٩٢ هـ) ، وتوفى بالقاهرة ٣٥٧ هـ عن ٦٥ عاماً [الأعلام للزركلى ٥/٢١٦] .

(٣) المَيْنُ : الكذب .

ومثلُكَ يُؤتَى منْ بـلادٍ بَعيـدَةٍ ... ليُضحكَ ربَّات الحـداد البَواكـيَا
ولَوْلاَ فُضُول الناسِ جئتُك مَادحاً ... بمـا كنتُ فى نَفْسِى به لَكَ هَاجيَا

وقد يكون الشـاعر بخيـلاً ، ولكنه يمدح الكرم والكريم ، ويرفـعه إلى عنان السماء :

متَى تَأْته تَعشُو[1] إلى ضَوْء نَاره ... تَجدْ خَيْر نَارٍ عنْدهَا خَيْرُ موقد[2]

والحطيئة[3] مع ما عُـرف عنه من البخل يمـدح أحدهم ، ويصـفه بالكرم النادر ، لدرجة أنْ جعله يهمُّ بذبح ولده لضـيفه ؛ لأنه لم يجد ما يذبحه ، وينظم الحطيئة فى الكرم هذه القصـيدة أو القصة الشعرية التى تُعَـدُّ من عيـون الشعـر العـربى ، ومع ذلك لم يأخذ مـما يقـول عبرةً ، وظلَّ على إمساكه وبُخْله .

يقول الحطيئة فى وصف الكريم :

وَطَاوِ ثَلاثاً عَاصب البَطْنِ مُرْمـلٍ ... ببَيْداءَ لم يَعرِف بها ساكن رَسْما[4]
أَخي جَفْوَةٍ فيه منَ الأُنْس وَحْشَةٌ ... يرى البُؤْسَ فيها منْ شراستِه نُعْما
وَأَفْرَدَ فى شعْبٍ عَجُوزاً إزَاءَهَـا ... ثلاثَـةَ أشْـباحٍ تَخَـالهـوا بُهْـما

(١) أعشـو : أنظر . يقال : عشوت إلى النار إذا أحـددت نظرك إليها . قـاله أبو على القالى فى الأمالى (١٤٩/١) . وقال ابن منظور فى اللسان فى معنى البيت « أى متى تاته لا تتبين ناره من ضعف بصرك » .

(٢) أورده أبو على القالى فى « الأمالى » (١٤٩/١) . وكذا ابن منظور فى [لسان العرب ـ مـادة : عشـا] . وعـزاه للحطيـئة . وكـذا أورده أبو الفـرج الأصـفهـانى فى « الأغـانى » (٢٣٧/١) .

(٣) هو : جرول بن أوس بن مالك ، وهو مُخضرم ، أدرك الجاهلية والإسلام ، أسلم ثم ارتد ، لُقِّب بالحطيئـة لقصره وقربه من الأرض . كـان ذا شر وسفه ، كان ينتـمى إلى كل واحدة من قبائل العرب إذا غضب على الأخرى . [الأغانى لأبى الفرج الأصفهانى ٢٢٢/١] .

(٤) الطاوى : الجائع . مُرمل : قد اختلط طعامه بالرمل . الرسم : الأثر .

حُفاةٌ عُراةٌ ما اغتذَوْا خُبْز ملَّة[١] ولاَ عَــرفُوا للبُــرِّ مُذْ خُلقُـوا طَعْما
رأى شَبَحاً وَسْط الظَّلام فَرَاعَه[٢] فلمَّــا رأى ضَيْـفاً تَشـمَّر واهْتَما
فَقَــالَ ابنُــه لمــا رآهُ بحيْــرة أيَا أَبَـتِ اذْبحْـنى ويَسِّر لَهُ طُعْما
وَلاَ تعتذر بالعُدْم على الذى طَرا يظـنُّ لَنَا مالاً فَيُوسِــعُنا ذَمّــا
فَبَيْنَا هُما عَنَّتْ على البُعْـد عَــانَةٌ قَد انتظمتْ من خَلْف مسْحلها نَظْما[٣]
عطَاشاً تريد الماءَ فانسابَ نحوها علــى أنَّه منْـها إلـى دَمها أظْمَا
فَأمْهلَها حتَّى تــروَّتْ عطَاشُــها وارســلَ فيهَا منْ كنَانـته سَهْـما
فخرَّتْ نَحُوصٌ ذَات جحش سَمينةٌ قَد اكتنزتْ لَحْماً وقد طبِّقَتْ شَحْما[٤]
فَيَا بشْرَهُ إذْ جرَّهَا نحــو قَومه ويَا بشْرهُمْ لما رأوْا كَلْمها يَدْمَا[٥]
وَبَاتُوا كراماً قَدْ قَضَـوْا حَـقَّ ضَيْفهمْ ومَا غَرمُوا غُرْمـاً وقَدْ غنموا غُنْما
وَبَاتَ أبُوهــم من بَشَاشَــته أباً لضَيْفهـمُ والأم منْ بشْـرها أمّــا

وصدق الله العظيم : ﴿أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ (٢٢٥) وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ (٢٢٦)﴾ [الشعراء] يصفون الكرم وهم بخـلاء ، والشجاعة وهم جبناء ... إلخ .

وفى مرة ، اجتمع عند النبى ﷺ اثنان من الشعراء : الزبرقان بن بدر ، وقيس بن عاصم ، وعـمرو بن الأهتم فقال أحـدهم عبارتين فى مدح أحد الحاضرين بأنه سيد القبيلة . فغضب الممدوح ورأى أن هذا

(١) خبز ملة : هو الخبز يوضع فى الرماد الحار الذى يُحمى ليُدفن فيه الخبز لينضج .
(٢) راعه : أخافه وأفزعه .
(٣) عنَّت : ظهرت . عانة : العنون من الدواب : من حُمُر الوحش . المسحل : قائد القطيع .
(٤) نحوص : سمينة ممتلئة . طبقت شحماً : امتلأت شحماً ولحماً .
(٥) الكَلْم : الجرح . يدما : ينزف دماً . [راجع لسان العرب] .

قليل فى حقِّـه ، فقال : والله يا رسول الله ، إنه ليـعلم منى فوق الذى قـال - يعنى : لم يُوفِّنى حـقى - فقـال الشـاعر : أمـا والله وقد قـال ما قال ، فإنه لضيق العطية ، أحمق الأب ، لئيم العم والخال . سبحان الله فى أول المجلس كان سيد قبيلته ، والآن هو ضيق العطية ، أحمق الأب ، لئيم العم والخال !!

ثم قال : والله يـا رسول الله ما كـذبتُ فى الأولى ، ولقـد صدقتُ فى الثـانيـة - يعنى : أنا مـصيب فى القـولين - لكنى رضـيت فـقلت أحسنَ مـا علمت ، وغضبت فقلت أسـوأ ما علمتُ . عندها قال سـيدنا رسول الله « إن من البيان لسحراً »[1] .

ثم يستثنى الحق سبحانه من هؤلاء الغاوين :

﴿ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَذَكَرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱنتَصَرُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾ ﴾

كان بعض شعراء المشركين أمثال عبد الله بن الزبعرى ، ومسافح

---

(١) أخـرج هذا الحديث بهـذه القـصة البـيهـقى فى دلائل النبـوة (٥/٣١٦) بإسنادين الأول منقطع عن محـمد بن الزبير الحنظلى ، والثانى مـوصولاً من حديث ابن عبـاس قال : جلس إلى رسول الله ﷺ قيس بن عاصم والزبرقـان بن بدر وعمرو بن الأهتم التميميـون ، ففخر الزبرقان ، فقال : يا رسول الله أنا سيد تميم والمطاع فيهم والمجاب أمنعهم من الظلم وآخذ لهم بحقوقـهم ، وهذا يعلم ذلك يعنى عمرو بن الأهتم ، فقال عـمرو بن الأهتم : إنه لشديد العارضة ، مانـع لجانبه ، مطاع فى أذنيه ، فقال الزبرقـان بن بدر : والله يا رسول الله لقد علم منى غير ما قال ، وما منعه أن يتكلم إلا الحسد ، فقال عمرو بن الأهتم : أنا أحسدك ، فوالله إنك لئيم الخال ، حديث المال ، أحمق الولد ، مضيع فى العشيرة ، والله يا رسول الله لقد صدقت فيما قلت أولاً ، وما كـذبت فيما قلت آخراً ، ولكنى رجل إذا رضيت قلت أحسن ما علمت ، وإذا غـضبت قلت أقبح مـا وجدت ، ولقد صدقـت فى الأولى والأخرى جميـعاً ، فقال النبى ﷺ : إن من البيان سحراً ، إن من البيان سحراً .

الجمحي يهجون رسول الله ﷺ ويذمونه ، فيلتف الضالون الغاوون من حولهم ، يشجعونهم ويستزيدونهم من هجاء رسول الله ، وفي هؤلاء نزل قوله تعالى : ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ (٢٢٤) ﴾ [الشعراء] فأسرع إلى سيدنا رسول الله شعراءُ الإسلام : عبد الله بن رواحة وكعب بن زهير ، وكعب بن مالك ، وحسان بن ثابت ، فقالوا : أنحن من هؤلاء يا رسول الله ؟ فقرأ عليهم رسول الله هذه الآية :

﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ .. (٢٢٧) ﴾ [الشعراء]

فاستثنى الحق - تبارك وتعالى - من الشعراء مَنْ توفَّرت فيه هذه الخصال الأربع ﴿ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيراً وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا .. (٢٢٧) ﴾ [الشعراء] أي : ذكروا الله في أشعارهم ؛ لينبهوا الناس إلى مواجيد الدين ومواعظ الإيمان ، فيلتفتون إليها ، ثم ينتصرون لرسول الله من الذين هَجَوْه .

وكان هؤلاء الثلاثة ينتصرون للإسلام ولرسول الله ، فكلما هجاه الكفار ردُّوا عليهم ، وأبطلوا حُججهم ، ودافعوا عن رسول الله ، حتى أنه ﷺ نَصَبَ منبراً[1] لحسان بن ثابت ، وكان يقول له : « قل وروح القدس معك ، اهجهم وجبريل معك »[2]

وقال لكعب بن مالك[3] : « اهجهم ، فإن كلامك أشدُّ عليهم من

---

(١) أخرج الحاكم في مستدركه (٤٨٧/٣) عن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله ﷺ يضع لحسان منبراً في المسجد يقوم عليه قائماً يفاخر عن رسول الله ﷺ ، ويقول ﷺ : « إن الله يؤيد حسان بن ثابت بروح القدس ما نافح أو فاخر عن رسول الله ﷺ » ، وكذا أخرجه أبو داود في سننه (٥٠٠٥) .

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (٣٢١٣ ، ٦١٥٣) ، وكذا مسلم في صحيحه (٢٤٨٦) كتاب فضائل الصحابة من حديث البراء بن عازب .

(٣) هو : كعب بن مالك بن عمرو الأنصاري السلمي الخزرجي ، صحابي من أكابر الشعراء من أهل المدينة ، اشتهر في الجاهلية ، وكان في الإسلام من شعراء النبي ﷺ ، عمي في آخر عمره ، وعاش ٧٧ سنة ، توفي ٥٠ هـ . (كتاب الأعلام للزركلي) .

رَشْق النِّبال »[1] كما سمح لهم بإلقاء الشعر في المسجد ؛ لأنهم دخلوا في هذا الاستثناء ، فهم من الذين آمنوا ، وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً ، وهم الذين ينتصرون للإسلام ويُمجِّدون رسول الله ، ويدافعون عنه ، ويردُّون عنه ألسنة الكفار .

ومعنى : ﴿ وَانتَصَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا .. (٢٢٧) ﴾ [الشعراء] أنهم لم يكونوا سفهاء ، ولم يبدأوا الكفار بالهجاء ، إنما ينتصرون لأنفسهم ، ويدفعون ما وقع على الإسلام من ظلم الكافرين ؛ لذلك لما هجا أبو سفيان رسول الله ﷺ ، قال أحدهم[2] رداً عليهم :

أَتهْجُوهُ وَلسْتَ لَهُ بِكُفْءٍ ... فَشرُّكما لخيركما الفِدَاءُ
فَإِنَّ أَبِي وَوَالده وعِرْضِي ... لعِرْضِ مُحمد منكمُ وَقَاءُ

وقوله تعالى : ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا .. (٢٢٧) ﴾ [الشعراء] ظُلموا ممَّنْ ؟ من الذين وقفوا من الدين ومن الرسول موقفَ العداء ، وَتعرَّضوا لرسول الله وللمؤمنين به بالإيذاء والكيد ، ظُلموا من الذين عزلوا رسول الله ، وآله في الشِّعْب حتى أكلوا أوراقَ الشجر ، من الذين تآمروا على قتله ﷺ إلى أنْ هاجر .

ومن رحمته تعالى وحكمته أنْ أباح للمظلوم أنْ ينتصر لنفسه ، وأنْ يُنفِّس عنها ما يعانيه من وطأة الظلم ، حتى لا تُكبتَ بداخله هذه المشاعر ، ولا بُدَّ لها أن تنفجر ، فقال سبحانه : ﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾ [النحل]

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٤٩٠) كتاب فضائل الصحابة .

(٢) هو حسان بن ثابت ، كما جاء في صحيح مسلم (٢٤٩٠) كتاب فضائل الصحابة ، وفيه أن أبياته كالتالي :

هَجَوْتَ مُحمداً فَأَجبْتُ عَنْهُ ... وعِنْد الله في ذَاكَ الجزَاءُ
هَجوْتَ مُحمداً بَرّاً حَنيفاً ... رَسُولَ الله شيمتُه الوَفَاءُ
فَإنَّ أبي وَوَالده وَعِرْضِي ... لعِرْضِ مُحمدَ منكُمْ وقَاءُ

وانظر أيضاً دلائل النبوة للبيهقي (٥/٤٨ ، ٤٩) .

وقال تعالى : ﴿لا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَن ظُلِمَ .. (١٤٨)﴾ [النساء]

فأباح للمظلوم أن يُعبِّر عن نفسه ، وأن يرفض الظلم ، ولا عليه إنْ جهر بكلمة تُخفِّف عنه ما يشعر به من ظلم .

ثم تختم السورة بقوله تعالى : ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧)﴾ [الشعراء] يعنى : غداً سيعلمون مرجعهم ونهايتهم كيف تكون ؟ والمنقلب هو المرجع والمآب ، والمصير الذى ينتظرهم .

فالحق ـ تبارك وتعالى ـ يتوعدهم بما يؤذيهم ، وبما يسوؤهم ، فلن تنتهى المسألة بانتصار المسلمين عليهم ، إنما ينتظرهم جزاء آخر فى الآخرة .

كما قال سبحانه فى موضع آخر : ﴿وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ .. (٤٧)﴾ [الطور]

لذلك أبهم الله تعالى هذا المنقلب ، وإبهامه للتعظيم والتهويل ، وقد بلغ من العظَم أنه لا يُوصف ولا تؤدى العبارة مؤداه ، كما أبهم العذاب فى قوله تعالى : ﴿فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ (٧٨)﴾ [طه]

يعنى : شىء عظيم لا يُقَال ، والإبهام هنا أبلغ ؛ لأن العقل يذهب فى تصوُّره كل مذهب ، وعلى كل كيفية .

والمنقلب أو المرجع لا يُمدح فى ذاته ، ولا يُذمُّ فى ذاته ، فإن انتهى إلى السوء فهو مُنقلب سىء ، وإن انتهى إلى خير فهو مُنقلب حسن ، فالذى نحن بصدده من مُنقلَب الكافرين المعاندين لرسول الله منقلب سىء يُذَم .

أما مُنْقلَب سحرة فرعون مثلاً حين قال لهم : ﴿آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ

آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ .. (٧١) ﴾ [طه]

فماذا قالوا ؟ ﴿ قَالُوا لَا ضَيْرَ إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (٥٠) ﴾ [الشعراء] فهذا مُنقلَب حَسَن يُمدح ويُحمد .

وقد يظن المرء أن مُنقلَبه مُنقلَب خير ، وأنه سينتهى إلى ما يُفرح ، وهو واهم مخدوع فى عمله ينتظر الخير ، والله تعالى يُعد له منقلباً آخر ، كالذى أعطاه الله الجنتين من أعناب وحففهما بنخل ، وجعل بينهما زرعاً ، فلما غرَّته نعمة الدنيا ظنَّ أن له مثلها ، أو خيراً منها فى الآخرة ، فقال : ﴿ وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا (٣٦) ﴾ [الكهف]

والانقلاب والمرجع إلى الله ـ عز وجل ـ إنما يفرح به مَنْ آمن بالله وعمل صالحاً ؛ لأنه يعلم أنه سيصير إلى جزاء من الحق ـ سبحانه وتعالى ـ مؤكد ؛ لذلك الحق ـ تبارك وتعالى ـ يُعلِّمنا حين نركب الدواب التى تحملنا ﴿ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بَالِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ الْأَنفُسِ .. (٧) ﴾ [النحل]

علَّمنا أن نذكره سبحانه : ﴿ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ (١٢) لِتَسْتَوُوا عَلَىٰ ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤) ﴾ [الزخرف]

إذن : فالدوابّ وما يحلّ محلّها الآن من وسائل المواصلات من أعظم نعَم الله علينا ، ولولا أن الله سخَّرها لنا ما كان لنا قدرة عليها ، ولا طاقة بتسخيرها ؛ لذلك نقول ﴿ وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) ﴾ [الزخرف]

أى : لا نستطيع ترويضه ، فالصبى الصغير نراه يقود الجمل الضخم ، ويُنيخه ويُحمّله الأثقال وهو طائع منقاد ، لكنه يفزع إنْ رأى ثعباناً صغيراً ، لماذا ؟ لأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ سخَّر لنا الجمل وذلَّله ، ولم يُسخِّر لنا الثعبان .

وصدق الله العظيم إذ يقول سبحانه : ﴿ أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ (٧١) وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ (٧٢) ﴾ [يس]

ولكن ما علاقة قولنا : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَـٰذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (١٣) ﴾ [الزخرف] بقولنا : ﴿ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ (١٤) ﴾ [الزخرف]

قالوا : لأننا سننقلب إلى الله فى الآخرة ، وسنُسأل عن هذا النعيم ، فإنْ شكرنا ربنا على هذه النعمة فقد أدَّيْنا حقها ، ومَنْ شكر الله على نعمة فى الدنيا لا يسأل عنها فى الآخرة ؛ لأنه أدَّى حقَّها .

وقال سبحانه : ﴿ وَسَيَعْلَمُ .. (٢٢٧) ﴾ [الشعراء] بالسين الدالة على الاستقبال ، لكنها لا تعنى طول الزمن كما يظن البعض ؛ لأن الله تعالى أخفى الموت ميعاداً ، وأخفاه سبباً ومكاناً ، وهذا الإبهام للموت هو عَيْن البيان ، لأنك فى هذه الحالة ستنتظره وتتوقعه فى كل وقت ، ولو علم الإنسانُ موعد موته لقال : أفعل ما أريد ثم أتوب قبل أن أموت .

إذن : الوقت الذى تقتضيه السين هنا لا يطول ، فقد يفاجئك الموت ، وليس بعد الموت عمل أو توبة ، واقرأ قوله تعالى : ﴿ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَاهَا (٤٦) ﴾ [النازعات]

وقلنا : إن فى الآية ﴿ وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ (٢٢٧) ﴾

[الشعراء] تهديداً ووعيداً ، الحق - تبارك وتعالى - حين يُضخِّم الوعيد إنما يريد الرحمة بخَلْقه ، وهو مُحبٌّ لهم ، فيهددهم الآن ليَسلموا غداً ، ويُنبِّههم ليعودوا إليه ، فينالوا جزاءه ورحمته .

وكأنه - تبارك وتعالى - يريد من وراء هذا التهديد أن يُوزِّع رحمته لا جبروته ، كما تقسو على ولدك ليذاكر وتهدده ليجتهد . إذن : فالوعد بالخير خير ، والوعيد بالشر أيضاً خير ، فكل ما يأتيك من ربك ، فاعلم أنه خير لك ، حتى وإنْ كان تهديداً ووعيداً .

وهكذا قدمتْ لنا سورة الشعراء نموذجاً من تسلية الحق - تبارك وتعالى - لنبيه محمد ﷺ والتخفيف عنه ما يلاقي من حزن وألم على حال قومه وعدم إيمانهم ، وعرضَتْ عليه ﷺ موكب الرسل ، وكيف أن الله أيَّدهم ونصرهم وهزم أعداءهم ودحرهم .

ثم سلاَّه ربه بأنْ رَدَّ على الكفار في افتراءاتهم ، وأبطل حججهم ، وأبان زَيْف قضاياهم ، ثم تختم هذه التسلية ببيان أن للظالمين عاقبة سيئة تنتظرهم وأبهم هذه العاقبة ﴿أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ ﴿٢٢٧﴾﴾ [الشعراء] ليضخمها .

والشيء إذا حُدِّد إنما يأتي على لَوْن واحد ، وإنْ أُبهم كان أبلغ ؛ لأن النفس تذهب في تصوُّره كل مذْهب ، كما لو تأخَّر مسافر عن موعد عودته فنجلس ننتظره في قلق تسرَح بنا الظنون في سبب تأخره ، وفي احتمالات ما يمكن أنْ يحدث ، وتتوارد على خواطرنا الأوهام ، وكل وهم يَرِد في نفسك بألم ولذعة ، في حين أن الواقع شيء واحد .


سُورَةُ النَّمْلِ



سـورة النمـل(١)

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ طسٓ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾

تكلمنا كثيراً على هذه الحروف المقطَّعة فى أوائل السور ، وهنا (طس) وهما حرفان من حروف المعجم ، وهى تُنطق هكذا (طاء) و (سين) لأنها أسماء حروف ، وفَرْق بين اسم الحرف ومُسمَّاه ، فكلٌّ من الأمى والمتعلم يتكلم بحروف يقول مثلاً : كتب محمد الدرس . فإنْ طلبتَ من الأمى أن يتهجى هذه الحروف لا يستطيع لأنه لا يعرف اسم الحرف ، وإنْ كان ينطق بمُسمَّاه ، أمّا المتعلم فيقول : كاف تاء باء .

ورسول الله ﷺ كان أمياً لا يعرف أسماء الحروف ، فهى إذن من

(١) سورة النمل هى السورة رقم (٢٧) فى ترتيب المصحف الشريف ، وعدد آياتها ٩٣ آية ، وهى سورة مكية . قاله ابن عباس فيما أورده السيوطى فى (الدر المنثور ٦/٣٤٠) وعزاه لابن الضريس والنحاس وابن مردويه والبيهقى فى الدلائل . وقد ذكر القرطبى فى تفسيره (٧/٥٠٣٥) الإجماع على أنها مكية كلها ، وقد نزلت بعد سورة الشعراء كما هى فى ترتيب المصحف . وقيل سورة القصص كذلك . انظر : الإتقان فى علوم القرآن (١/٢٧) .